السلطة الذكورية من الأسطورة إلى الحداثة

قراءة في كتاب: الضلع الأعوج (المرأة وهويتها الجنسية الضائعة)

المؤلف: إبراهيم محمود

الناشر: رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٤

الصفحات: ٣٩٣ قطع كبير

عرض: إبراهيم حلبي

بين الأم العظيمة، أو آلهة الأرض الكبرى، كما هو مشهدها في الأدب الأسطوري، وبين الجسد كموضوع للشهوة أو مصدر للفتنة والإغواء، ثمة تفاوت مريع في النظر إلى المرأة. ذلك هو الموضوع الذي أفرد له الباحث السوري إبراهيم محمود كتابه «الضلع الأعوج». فإنه انطلاقاً من رفضه لما هو شائع من عمليات حسابية كمية لمكانة المرأة في الحياة، كالقول بأنها نصفنا الآخر، أو الجزء المتمم لنا، يدعو الكاتب في هذا المجال إلى معرفة مختلفة للمرأة تفضي إلى معرفتها وحضورها ومشاركتها الفعلية في الحياة، بعيداً عن الثقافة الشائعة على المستوى العالمي اليوم، بما فيها ثقافة مجتمعنا العربية والإسلامية.

يذهب المؤلف من نقد المفردات اللغوية إلى نقد النصوص التراثية في غضون استقرائه للتطورات التاريخية التي انحدرت المرأة في مسارها إلى ما يوصف بـ «الدونية» بالتعبير الحديث. فهي في البداية كانت رمز التجديد في الكون، وعلامة التغيير فيه. وهي الكائن المتفرد، وهي الخصوبة كذلك بينما أصبحت اليوم حقيقة ثانوية تقف في الظل. إن ذلك ما يطلق عليه المؤلف ظاهرة الاغتراب في واقع المرأة، على الصعد المختلفة، السياسية والاجتماعية، والثقافية واللغوية.

مروحة واسعة من الأفكار، يقف المؤلف حيالها بالنقد.

يزعم الكاتب أن بني البشر لم يعرفوا المرأة بعد. أو أن معرفتهم بها تستند إلى سلطة الذكورة. لكن تاريخ المعرفة الإنسانية، لا تقتصر ملابساته وما يعتريها من إشكاليات ثقافية وفكرية، على ضياع حلقات خاصة بالمرأة، إنما على جملة من القضايا المتعلقة بالعلوم الخاصة بالإنسان، والتي لا تزال في حراك ملحوظ. ثم إن كل ما ندعيه في لحظة معينة أنه المعرفة، لا نلبث أن نعود لنضيف عليه، أو لنراجعه من أجل كشف جديد ومعارف مبتكرة. ويُحيل الكاتب خلل المعرفة الحقيقية بالمرأة أو (حقيقة المرأة) إلى واقع أن أكثر المتحدثين عنها هم من الرجال. حتى النساء اللواتي تحدثن عن المرأة هن صدى للرجال إلا في ما ندر. وعليه يتفق المؤلف مع فكرة علي حرب بالحكم على تلك المحاولات بالبطلان. لأن خطابهم هو خطاب الرجل عن المرأة لا خطاب المرأة عن نفسها بالذات. وهذه

المقولة تتكرر على كل حال في عدد من الأدبيات الثقافية التي تتصدى لقضية المرأة. بيد أن السؤال الذي يجب التذكير به، والتأكيد المتواصل عليه، في سبيل الوصول إلى جواب معرفي، هو: لماذا هذا الإطلاق في تجريد الرجل (المفكر، الكاتب، الفيلسوف، الإنسان) من إنسانيته، وبالتالي من تجرده عن سلطته الذكورية وهو يقف حيال مسألة وجودية تاريخية هي مسألة المرأة. أو ليس الخطاب الذي يفرده أمامنا المؤلف هو خطاب رجل عن قضية المرأة؟ هل يدعونا ذلك إلى إهمال اجتهاداته ومعالجاته، باعتبارها جاءت من قلم «الذكورة» إياه؟

الكتاب بالأصل، حسب تنويه المؤلف في المقدمة، كتابان. في الأول يتخذ طابعاً سردياً تاريخياً وتحليلياً، وفي الثاني طابعاً تخصصياً حين يدور في فلك إسلامي، وهو يتمحور حول موضوعات ما زالت تشغل كل معني بأمور العقيدة وشؤون الدين.

من أين بدأت قضية الضلع الأعوج؟ ذلك هو السؤال الذي يفرد المؤلف صفحات كتابه في قسمه الأول للإجابة عليه، معتمداً في ذلك على الأسطورة وتحليلها. ومرجعيته الفكرية الأساسية النص السومري الذي يرجع إلى خمسة آلاف عام. فيرى أن وضعية المرأة آنذاك شغلت المكانة التي تستحقها؛ فهي متوحدة مع الطبيعة، تثبت وتتغير، تنتج وتتبدل. وحين كانت المرأة آلهة ومؤلهة، وهو وضعها في الأسطورة، فهذا يؤكد سمو مكانتها. فالنص الأسطوري يفلسف الوجود، ولذلك ليس غريباً أن تكون أول أم هي الأرض. إنها العذراء وأم القمح، تنتج الحياة وتجدد الخصب. إنها الخالقة التي لا تنضب. ولكن المؤلف لا يرى أن هناك ما يؤكد صدقية المدونات سالفة الذكر. لأن هاتيك المدونات برأيه يمكن اعتبارها مخلفات أو مؤلفات تاريخية، غالباً ما يكون أصحابها رجال سلطة. ويشبه هكذا احتمال بتلك العلاقة التي جمعت أفلاطون بالسفسطائيين الذين كان يكرههم، لكنه قام بنقل أخبارهم، وكتب عنهم، أو عرَّفَنَا بهم، ويندر وجود مصادر محضة تحمل أسماءهم.

حين يأتي المؤلف إلى تحليل مسألة الانقلاب التاريخي على المرأة ومكانتها، وإنهاء مساواتها بالأرض، واندماجها بالطبيعة، وانبثاقها كآلهة في الأساطير، يُرجع هذا الانقلاب إلى محاولة الرجل اكتساح المرأة وتهميش فاعليتها تاريخياً.

مثل هذه القصدية «الواعية» في سلوك الرجل قبل التاريخ، ترفضها مناهج العلوم المعاصرة بمدارسها كافة. وإذا كان تطور الاجتماع البشري أفضى من جملة ما أفضى إليه إلى تبدلات في علاقة المرأة بالرجل، وعلاقة الاثنين بالمعرفة، فلا يعود

ذلك إلى محاولة مقررة أعدها الرجل ضد المرأة، بقدر ما هو نتيجة مسارات معقدة تعقيداً بالغاً لتطور معيشة الإنسان وحاجاته للدفاع عن وجوده أولاً، وللحفاظ على بقائه ثانياً. وفي غضون ذلك تتشكل الثقافة التي تعطي صورة عن مستوى التطور العام إلى حد بعيد. وهنا تكون الثقافة التاريخية عند المرأة جزءاً من ثقافة حياة شاملة، حاول الإنسان عبرها إقامة التوازن لوجوده، وهو توازن لا يحسب بالكمية على صعيد العلاقة بين الجنسين، كما أنه توازن متحرك ومتبدل وإن كنا نرى في حراكه وتبدله، على صعيد قضية المرأة، وحتى الآن، ما يضعها في «دونية» لا تتناسب على الإطلاق مع حقيقة الحياة منذ بدء التاريخ وعلى امتداده.

يبسط المؤلف حشداً من الاقتباسات الميثولوجية لدى أكثر من (حضارة) ليُبين تلك المكانة التاريخية التي للمرأة قبل «الانقلاب» عليها، حسب تعبيره. نصوص سومرية، وأخرى بابلية ومثلهما لدى أفارقة. وحين تتشكل مقدمات ما وصفه بالانقلاب الثقافي، نجد أن أسطورة سومر وبابل، قبل التكوين التوراتي أرهصت ببدايات تحول المرأة إلى ضلع ثم إلى ضلع أعوج.

ثمة قدر كبير من النصوص والأفكار التي أوردها المؤلف، يتميز بالتشويق والغنى كما يتميز بتحليله لتطور المعرفة في ميدان المرأة، وموضوعها التاريخي، بحيث يقف على تجليات بارزة في معنى القهر الإنساني. وإن كان من ملاحظة لما بسطه من أفكار، اعتماداً على تحليله لعدد كبير من النصوص المدونة، فهي أن المؤلف أبقى موضوع بحثه مستغلقاً أمام أي محاولة لاستنتاج أطروحة معرفية خاصة بالمرأة.

في الفصلين الأخيرين، السابع والثامن، من القسم الأول من الكتاب، الذي هو الكتاب الأول من كتابين جمعهما المؤلف معاً، يأخذ الكاتب مفردات العصر الحديث، وأفكاره، بعضها على الأقل، وينتقد بشدة تسليع المرأة. هذا إضافة إلى نقده الصارم لعملية تحول الجنس الى صناعة.

«أن تكون المرأة لصيقة بنا لا يعني أنها صارت ملكاً لنا. وأن تكون في كل مكان لا يعني أنها سادت الرجل في ذلك، من حيث حرية الحركة والقدرة على امتلاك المكان. أن تشترك المرأة في فيلم، لا يعني ذلك أنها أكدت حضورها كما هو مرغوب فيه إنسانياً، أي تجاوز العالم الاغترابي الذي يلفها من الجهات كافة، فالتمايز الجنسي مازال قائماً هنا وهناك وبدرجات متفاوتة. وفي عصر يتميز بطابع إمبريالي يكاد يكون عاماً؛ إمبريالية الثقافة، إمبريالية السياسة، إمبريالية الجنس، إمبريالية الإعلام، إمبريالية السلعة، إمبريالية الموضة، إمبريالية الدعاية... إلخ، لا يصعب

على أي مهتم ومطّلع لملمة العناصر التي تشكل ما نسميه إمبريالية الجنس والتي تتمحور حول المرأة بصورة خاصة، ولا يكون الرجل خارج الإطار، فهو نفسه طرف داخل في ذلك، يُستهلك، لكن يفوقها قيمياً بدرجة».

القسم الثاني من كتاب إبراهيم محمود (الضلع الأعوج) يتناول موضوع الجنس والجنسانية. ويفكك نصوص الأساطير وأحاديث الفقهاء وبعض ما نقلته الكتب التراثية عن الأنبياء. وبذلك يقرر أن حضور الجنس كفاعلية موظَّف لخدمة الذكورة. والجسد الأنثوي منذور للآخر، للجسد الذكري. والفحولة لا تعدو بالنتيجة كونها سياسة امتلاك، وإبداع لسر امتلاك الأنثى، ولقهر الذين يفتقدون هذا الامتياز المقدس.

الفحولة، الجماع، شهوة المرأة، أسطورية الجمال والشهوة، الخنوثة، الجنس والشيطان. كلها عناوين أدرج المؤلف تحتها جملة من النصوص الأسطورية والدينية، ليصل إلى ما يدعيه من محاولة استبصار للعلاقة بين الجنس والجنسانية.

كيف يمكن مقاربة العلاقة التي هي أكثر من مرئية بين الجنس والجنسانية، ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين؟ ذلك سؤال الكاتب ومقدمة القسم الثاني.

يتبع المؤلف ظاهرة فحولة الذكورة في التاريخ، وفي نصوص متفاوتة ومتعددة في مستوياتها الأدبية والرمزية. يعاين أقوالاً لابن منظور ويحيل إلى معناها كما وردت في لسان العرب. إنه يستنتج من عدد من العبارات أن كلمة ذكر تدل على القوة والعظمة والنفوذ القِيَمي. وفي الأنوثة وحقيقتها اللغوية، تبدو معاني الهشاشة وسرعة التأثر بالآخر، والضعف البنيوي والتكويني، وإمكانية التحكم بها بالتالي.

إن القسم الثاني من الكتاب أشبه برحلة إلى محطات منتقاة من الخطابات الدينية والنصوص الميثولوجية. لقد دأب المؤلف، من خلال عرضها وتحليلها ونقدها إلى التأكيد على ما للثقافة الجنسانية من سلطة معرفية تقوم مهمتها على تحوير فاعلية الجنس لخدمة الذكورة وسلطتها.

إن قارئ الكتاب سيقف حيال مقاربات ذكية وشيقة لموضوع شغل الإنسان المعاصر ولا يزال. وهو كتاب يعتمد مؤلفه على مراجع هامة في التراث الديني والأسطوري، كما في الخطابات الثقافية، والفلسفية الحديثة، من علم نفس واقتصاد وجمال وأدب.